

نتشه

تمهيد: يمكن ابتداء طرح جملة من الأسئلة، من هو نيتشه؟ وما هي إسهاماته الثقافية عامة والفلسفية خاصة والتي جذبت الاهتمام إليه؟ حقيقة إن نيتشه هو فيلسوف ألماني مشكل في تاريخ الثقافة الأوروبية. وهو و الفيلسوف سورين كيركيغورد يعدان المنبعين الروحيين للفلسفة الوجودية . بدأ نيتشه نشاطه العلمي والأ كاديمي باحثا في علم فقه اللغة الكلاسيكي . وكتب العديد من النصوص النقدية في الدين ، والأخلاق ، و الحضارة المعاصرة ، والفلسفة والعلم . وقد تميز بخطابه المتفرد ، وكان مغرماً باستخدام المجاز ، والأسلوب الساخر والحكم المختصرة .

حياته: فريدريش قلهم نيتشه فيلسوف وعالم لغويات ألماني. ولد في روكن Rocken قرب مدينة لايبزيغ بروسيا يوم عيد الملك فريدريش قلهم الرابع، فسمي باسمه ومات في قايمار. وهو من أسرة من القساوسة، لكنه كان شديد الإلحاد فجعله محور كتاباته، تيمم باكراً من والده، فتولت تربيته نسوة العائلة اللاتي أسرفن في تدليله وملاطفته ، فقد قضى طفولة سعيدة، وكان تلميذاً مهذباً صادقاً مطواعاً حتى أطلق عليه اسم القسيس الصغير، أرادته أمه قساً كأبيه فالتحق وهو في الثانية عشرة من عمره بمدرسة بفورتا Schulpforta، لكنه عدل عن ذلك بعد أن فقد إيمانه في الثامنة عشرة من عمره، فمرّ بمرحلة من الشك والتشتت، خرج منها ب التحاقه بجامعة بون ثم بجامعة لايبزيغ (1864-1869).

سُمي نيتشه سنة 1868 أستاذ فقه اللغة اليونانية (الفيلولوجيا) في جامعة بازل بسويسرا بعد أن مُنح درجة الدكتوراه ليتم التعيين طبقاً للوائح ، ولفت الأنظار إليه نشره عدة مقالات في مجلة ريتشل Ritschl.

ولما نشبت الحرب بين ألمانيا وفرنسا 1870 تطوع في الجيش، ولأنه أصبح مواطناً سويسرياً كان عليه أن يكتفي بالعمل ممرضاً في الخدمة العسكرية.

وبعد أن تدهورت صحته أعفي من الخدمة وأعيد إلى بازل. ولم يشفَ أبداً من الأمراض التي أصابته في أثناء تجنيده، فاضطر إلى الاستقالة من الجامعة والتدريس سنة 1879، وقد رصدت له الجامعة راتباً جيداً يحيا منه. وقد قضى الأعوام العشرة التالية متنقلاً بين سويسرا وإيطاليا، مواصلاً عمله التأليفي، وكان في معظم الأحيان منعزلاً لا يعترف به أحد. وانتهى به المرض سنة 1889 إلى الشلل الكلي والجنون، فأرسل إلى المشفى العقلي في بازل وينا Jena ثم أعيد إلى أمه في ناومبرك سنة 1890، ولما ماتت تعهدته أخته في قايمار سنة 1897، وباشرت نشر كتبه وظلت ترعاه إلى حين وفاته.

قلنا إن بداية نيتشه كانت مع فقه اللغة الكلاسيكي (الفيلولوجي) . إلا إنه تحول بعد ذلك إلى مضمار الفلسفة . ففي سن الرابعة والعشرين أصبح رئيساً لقسم علم فقه اللغة الكلاسيكي في جامعة باسال (وهو أصغر أستاذ احتل هذا الموقع) . ولكنه إستقال عن رئاسة القسم لأسباب صحية ، والتي تحكمت بمصيره لفترة طويلة . وفي العام 1889 تعرض إلى إنهيار عصبي ، تركه في حالة إختلال عقلي شديد ، لازمه حتى وفاته في العام 1900 .

أهم المؤثرات على فلسفته: ومن الكتابات المؤثرة في تفكير نيتشه حياة السيد المسيح . فقد درسها من خ

لال كتابات ديفيد ستراوس (1874 - 1808) المعنونة " حياة السيد المسيح " والتي تركت أثارا عميقة على شخصية وتفكير الشاب نيتشه ، والتي ستتطور لاحقاً في مشروعه المثير للجدل " المسيح الدجال " . ولكن في الحقيقة هناك عمل مهم جداً سبق هذا المشروع ، وهو مقاله المعنون : القدر والتاريخ ، والذي نشر في العام 1862 . وهنا كانت البداية النقدية النيتشوية للتعاليم المسيحية ، خصوصاً في بعدها التاريخي ، ومن ثم تتوجت في المشروع الهدمي " المسيح الدجال " .

تابع نيتشه في هذه الفترة دراساته في علم فقه اللغة ، وكان يجري هذه الدراسات تحت إشراف البرفسور ويلهلم ريتشل (1876 - 1806) ، الذي لعب دوراً مؤثراً في مستقبل نيتشه الأكاديمي ، خصوصاً بعد إن نشر نيتشه أول مطبوع له في علم فقه اللغة . فقد رشح ريتشل نيتشه لأن يكون رئيساً لقسم فقه اللغة الكلاسيكي في جامعة باسال .

وفي العام 1865 أكتشف نيتشه الفيلسوف شوبنهاور ، ومن ثم ركز على دراسة أعماله الفلسفية . ويقول نيتشه معلقاً على إكتشافه : " لقد أيقض شوبنهاور في نفسي نوازع الاهتمام بالفلسفة " . وكان للإحترام الكبير الذي يكنه نيتشه لشخصية شوبنهاور ، هو الذي حمله على كتابة مقاله المعنون : المرئي شوبنهاور .

ونرى بالإضافة إلى شوبنهاور ، فقد تأثر بالفيلسوف اليوناني هرقليطس (قبل الميلاد 475 - 535) ، وكان عارفاً بتفاصيل الفلسفة اليونانية . كما إنه قرأ كانط ، وجون ستيوارت ميل ، ودرس في وقت مبكر الدارونية التي ظهرت أثارها في فكرة العلو والسوبرمان . وأطلع على فكر تولستوي (1910 - 1828) الديني ، وقرأ بودلير (1868 - 1821) ، ومن ثم ديستوفسكي (1881 - 1821) والذي يقول نيتشه عنه : " إنه السيكلولوجي الوحيد الذي تعلمت منه كل شيء " (أنظر : محمد جلوب الفرحان ؛ نيتشه وهكذا تكلم زرادشت : بين الأصل و التوظيف الفلسفي ، ص 5 - 6) .

مؤلفاته: من أهم مؤلفات نيتشه : ولادة التراجيديا (نشرت عام 1872) ، التأملات السرمدية (نشر عام 1876) ، علم المرح 1882 ، هكذا تكلم زرادشت (1885 - 1883) ، فيما وراء الخير والشر 1886 ، جينولوجيا الأخلاق 1887 ، حالة فاكنر 1888 ، إرادة القوة (نشرته أخته بعد وفاته) ، والفلسفة في عصر الإغريق التراجيدي (طبع بعد وفاته). لقد سببت كتابات نيتشه ، خصوصاً المسيح الدجال ، وهكذا تكلم زرادشت، الكثير من المصاعب الأكاديمية له . فمثلاً " سدت بعض الجامعات الألمانية الطريق أمامه ليحاضر ويعلم فيها . فكانت محنة مضافة إلى قائمة المحن التي واجهها هذا الفيلسوف المتفرد .

فلسفته: يمكن التعرض لفلسفته من خلال جملة من النقاط

العقل: يعتقد نيتشه أنه لا يوجد عقل إنساني واحد متكامل وشامل يمكنه الحكم الكلي على الكون وعقلنة أحداثه وظواهره، في ظل هذه الصيرورة الكاملة، فالعقل ليس مستقلاً عن العناصر المحيطة به في الواقع، وحتى المنطق والأفكار الثابتة والعقائد لم تكن ثمرة رغبة في معرفة الحقيقة، وإنما الدافعية من خلق الثوابت ومنطقتها هي السيطرة والامتلاك، بعبارة أن المحرك هو الإرادة ولا شيء سواها. فالغرائز والنزعات نحو البقاء والقوة لها وجود أصلي حقيقي (بناء مادي تحتي) أما الفكر الذي يأتي لاحقاً (بناء فكري فوقي) يتخذ أشكالاً تبريرية للسلوكيات المادية الغريزية. فالأصل هو الفعل، والأخلاق ما هي إلا التبرير للأفعال إذ أن الدافعية برجماتية محضة. إذن، العقول تتمايز بتمايز الظروف والإرادات، ولذا قد تختلف الآراء إزاء أمر واحد.

وعندما أذعن لفكر الآخرين، ليس هذا الإنعان فعلاً عقلياً، إنما هو مجرد إنعان لإرادة القوة المنتصرة. فنجاح أية فكرة إنما يعبر عن مدى نجاح إرادة القوة في فرضها، فحقيقة نجاحك تكتسب من خلال الفرض وال فشل عكس ذلك. ومنطق هذا الفكر هو منطق القوة وكما يسميه نيتشه الحقيقة الديونيزية "الحقيقة التي يؤمن بها الإنسان الأعلى".

الأخلاق: تساءل نيتشه كيف يمكن أن ننظر إلى شخص يكون فاضلا؟ فالشخص الفاضل الذي يثني عليه الآخرون لما قدم لهم من خيرات وفضائل (الطاعة، العفة، العدالة، المثابرة.. إلخ) سوف تضر بالفعل الشخصي الحائز عليها! وكما يقول "لو كنت حائزا على فضيلة .. فأنت ضحية لها"، وهكذا نثني على الفضيلة عند الآخريين لأننا نحصل منها على منافع ومميزات. فالمعتقدات الأخلاقية هي معتقدات الجموع، والجموع أكبر من الفرد "مع الأخلاق يمكن للفرد فحسب أن ينسب لنفسه قيمة بوصفه دالا على القطيع"، فالأخلاق تمثل أولئك الذين يكونون ضعافا من الناحية الفردية (وهم أفراد). لكنهم أقوياء من الناحية الجمعية (وهم مجتمعون) وهم يأملون أن تحميهم قوانين الأخلاق بقدر ما تبرر وجودهم وأسلوب معيشتهم. فالأخلاق هي النتيجة الحتمية للمصلحة الذاتية الإنسانية والدافع التطوري للبقاء. فالدافعية للأخلاق دافعية برغماتية محضة كما أسلفنا، فلا وجود للخيار الحر ولا وجود للثنائيات المتجاوزة.

الإنسان الأعلى: إن الأستقراطيين الممتازين هم أساس وأصل الحضارات الكبرى، فالحيوانات المفترسة الشقراء كانت تجوب الأرض وتخضع الشعوب لسطوتها وتفرض عليها إرادتها وسلطانها، ومن ثم تختلق شرعة قيمية وأخلاقية تؤكد بها شرعيتها وسلطانها واستمرار سيادتها وسوطتها. وتعمل هذه الأقلية المسيطرة على الحفاظ على قوتها الجسمانية، وتحافظ على نقاء نسلها من الاتصال بأعراق الطبقات الدنيا. وهؤلاء الممتازون يقدسون الأجداد وصفاتهم النبيلة، وتتحول هذه القداسة إلى طقوس عبادية تؤله فيها ذكرى الأجداد الذين أصبحوا آلهة - فيما بعد - تقدم القرابين لأرواحهم، أي أن العبد والمعبود هو الذات المؤهلة.

وبهذا المفهوم النيتشوي ينقسم البشر إلى أقوياء وضعفاء، فالأقوياء هم السادة الذين يبتكرون القيم الأخلاقية لتبرير أفعالهم المباشرة، فهم يتسمون بغريزة السيطرة وحب الغزو والمخاطرة ونعيمهم هو الانتصار والسيادة، أما الضعفاء فقيمهم وسيلة لتغطية عجزهم ونكوصهم عن فرض إرادتهم.

إن الإله الحي المتجسد على الأرض الذي بشر به نيتشه هو الإنسان الأعلى "لا يمكن أن يكمن هدف الإنسانية في نهاية الزمان، بل فقط في أعلى نموذج لها" بالرغم أن هذه ليست حتمية إلا أن على البشرية أن تطمح لها كتحد للروح البشرية. ومن الأفراد التاريخيين الذين اقتربوا من هذا المثل الأعلى كما يصوره نيتشه أمثال: يوليوس قيصر، ونابليون. وقد هاجم كثير من النقاد صورة الفرد الذاتي الأناني الذي يمجذ ذاته فحسب، إلا أن نيتشه وجد أن الأنانية "الغرورية" تنتمي إلى ماهية الروح النبيلة!

وهذا الإنسان الأعلى سيولد من طبقة السادة الممتازين الذين نبذوا الأديان التي تنفر من الحياة الأرضية، والتي ساهمت في امتصاص عناصر القوة وأبقت البشرية في حالة ضعف ووهن. إذن الإنسان الأعلى هو عودة للطبيعة المادية الأصيلة التي تجسدت فيها إرادة القوة وسوف تتجسد من خلاله تجسدا تاما (نقيض فلسفة شبنهور أستاذه في بداياته). ولا يسعنا إلا أن نتخيل هذا "الإنسان الأعلى" بجيوش همجية يكتسح ما سواه!

وكما يقول نيتشه بصلافته النزقة وعجرفته المعهودة على لسان زرادشت: "على أهل السيادة في الإنسانية المتفوقة أن يمهدوا سبيل السعادة لمن هم دونهم بتضحية ملذاتهم وراحتهم وعليهم أيضا أن ينقذوا من لا يصلحون للحياة بالقضاء عليهم دون إمهال".

يرى تشارلز دارون في كتابه "سلالة الإنسان"، "أن القبيلة المؤلفة من كثرة الأعضاء الذين هم على استعداد دائما لمساعدة بعضهم البعض، والتضحية بأنفسهم من أجل الصالح العام، سوف تنتصر على معظم القبائل الأخرى، وسوف يكون انتخابا طبيعيا".

ونيتشه عكس السيناريو تماما "فلندع القبيلة تضحى بنفسها لو أن ذلك ضروريا للحفاظ على فرد واحد عظيم. إن ما ينبغي علينا أن نسعى لزيادته هو كيف البشرية لا كمها. إن الأمة طريق ملتف للطبيعة للوصول إلى ستة أو سبعة من الرجال العظماء. نعم وعندئذ تدور حولهم". فالصراع هنا ليس صراعا من أجل الوجود كما هو عند دارون، بل هو صراع من أجل العظمة والقوة. كما نلاحظ أن هذه النظرة غير السوية للبشرية لن

تخلق لنا سوى مسوخا بشرية تؤله الذات على حطام الشعوب! ولا شك أنها صورة قيئة من صور الاستبداد، و لا يمكن أن تكون إلا نتيجة حتمية لولادة نظام وحشي شمولي يعلي من قيمة الفرد الحاكم "ظل الإله في الأ رض".

العود الأبدي: وهي فكرة محورية في فلسفة نيتشه "العود الأبدي" والتي تبدو بديلا لفكرة الأبدية في الأديان السماوية، وهي أيضا قريبة الشبه من فكرة عقوبة سيزيف في الأسطورة اليونانية، الذي عاقبه كبير الآلهة بعمل متكرر ورتيب، وليست بعيدة أيضا عن فكرة الكارما البوذية، إلا أن نيتشه يرى أنها عود أبدي مادي رتيب "كالساعة الرملية" سيعود من جديد ويذهب من جديد دائما وأبدا، فكل شيء سيعود بنفس التسلسل وبنفس النتائج. ويعترف نيتشه بأنها فكرة محبطة جدا وليست أكثر إغراء من فكرة الجنة والخلود في الأديان السماوية، إلا أنها محرض لكي نكافح لنكون أعظم مما نحن عليه، ومادامت اللحظة الراهنة هي كل شيء، فلنستغلها أفضل استغلال محققين أفضل ما في أنفسنا.

فالزمان عندما تنتهي دورته الحالية لن يتوقف، إذ أنه سيبدأ من جديد دورة أخرى لا تختلف عن سابقتها، و العود الأبدي "يعني تكرار اللحظة بكل ثباتها وصيروتها، ولكنه ليس تقبلا لمضمون اللحظة الثابتة، وإنما هو تأكيد لصيورتها"، وكما يقول نيتشه مخاطبا اللحظة: "فلتكرري نفسك إلى الأبد" أي إنعان كامل للضرورة.

عبي التاريخ: التاريخ بالنسبة لنيتشه يمكن أن يهدد الحاضر، وذلك بجعل أمم الماضي العظيمة مثالية، ويحثنا على منافسة هذه الثقافات الميتة ولذا قال: "ليس لدينا نحن المحدثين ثقافة نقول عنها أنها ثقافتنا، فنحن نم لاً أنفسنا بعادات وفلسفات أجنبية، وكذلك بديانات وعلوم بحيث نصبح موسوعات جواله" (استخدام التاريخ وإساءة استخدامه) فتمثل الماضي واستخدامه في صنع حياتنا وثقافتنا هو مسخ لإرادتنا، فالتاريخ ما هو إلا عبء ميت ثقيل على الحاضر. فما قيمة أن تمتلك قدرا وفيرا من التاريخ، لكنك لا تستطيع أن تعيش حياة أصيلة من صنعك؟! إذن، إن اسقاط التاريخ على الحاضر هو إعدام للمشروع الفردي للتحقق الذاتي والفعل في العالم. وكلما قلّ اكتراثنا بالتاريخ، كلما كنا أقرب لإنتاج ثقافة حية "حرية الروح"، وإلا سنظل "مجرد ظلال للإ نسانية".

أهم تأثيراته في الفلسفة والفلاسفة: ترك نيتشه أثرا جوهريا على مسارات الفلسفة والثقافة الأوربيين على حد سواء. فقد ظهر حضوره المتميز في تطور الفلسفة الوجودية ، وفي تفكير إتجاهات ما بعد الحداثة . ولعل أسلوبه المتفرد وسؤاله الراديكالي عن قيمة وموضوعية الحقيقة ، ولد أنواعا متنوعة من التفسيرات الباحثة في نصوصه . ومن أفكاره المثيرة للجدل الدائم ومن ثم الإختلاف حولها : موت الله ، وإرادة القوة ، و السوبرمان ، والمسيح الدجال ...